الرياض

حروف و افكار

الرمز الفلسطيني والتحدي

منح الصلح

وسط وقائع الحرب وضحاياها وآلامها المتفاقمة على أرض فلسطين، ينطلق قطار السلام وفي قاطرته المتصارعان القديمان الجديدان ياسر عرفات واريل شارون، والسباق على من يرمي الآخر خارج الرحلة فيبقى وحده، شارون يعلل نفسه بأنه هو الباقي وقد علمه التاريخ ان الصهيوني المتطرف هو المطلوب دولياً في صفقات السلام العربي ـ الإسرائيلي.

اما عرفات فهو الذي علّمته الأيام انه المطلوب الوحيد، متطرفاً ومعتدلاً، لذلك يسير القطار وكأن لا مكان فيه إلا لمنتصر واحد، وأغلب الظن أنه الفلسطيني العتيق المكتشف أن النصر يكون دائماً لمن يقترب أكثر من الموت..

أياً كان اليوم والغد، فإن صورة ياسر عرفات سجين الغرفة الواحدة تظل مطبوعة في أذهان الفلسطيني والعربي وشعوب العالم المستضعفة والقطاعات المستنيرة الحرة في المجتمعات المتقدمة، ولا يجهل أحد الآن ولن يجهل ان الدولة الأكبر والاقوى في العالم هي التي سمحت للصهاينة، بل مكنتهم، من التصرف مع زعيم حركة التحرير الفلسطيني على هذه الصورة الخالية من أبسط أشكال اللياقة والاحترام هو الذي يملأ اسمه القارات.

ليس ياسر عرفات نوريغا المخدرات في نيكاراغوا مطلوباً للمحاكمة في الولايات المتحدة، ولا هو هتلر مبيد اليهود انطلاقاً من اعتبار الألمان من أصحاب الدم الأزرق، أصحاب الحق الوحيد في الحياة، وانما ياسر عرفات زعيم شعب مطرود ظلماً وعدواناً من أرضه ومسلوبة حقوقه في بلاده المقدسة للمسلمين والمسيحيين مثلما هي لليهود.

وحتى التوراة اليهودية تتحدث بأن الفلسطينيين كانوا شعباً أكثر عدداً وأوسع ارضاً وأعظم قوة في عز ايام (اسرائيل) القديمة. ليست المرة الاولى في تاريخ المقاومة الفلسطينية يكون فيها ياسر عرفات بهذا الوضع مطلوباً حتى الموت من قبل اعدائه.

فالمشهد نفسه رأيناه له في بيروت عندما كانت الطائرات تلاحقه شخصياً حيثما كان، فكل شارع يمر فيه يضُرب وكل بيت يؤويه يدّمر والمطلوب أو كأنه مطلوب أن يموت عرفات ما دام هو لم يذعن للاسرائيليين.

ويذكر أهل العاصمة اللبنانية كيف توصلت اسرائيل أن تخلق الذعر في نفوس الناس البيارتة حتى أصبحوا يفرون من كل حي يأتي اليه عرفات، والقلة القليلة تقدّم له بيتاً على ان تهجره وتنتظر تدميره بالكامل.

وفي بيروت الغربية أبنية قد هدمها الطيران الاسرائيلي لأن أبا عمار لجأ اليها أو كان مفترضاً أن يلجأ اليها.

كان في ذهن اسرائيل بأعمالها هذه ان تؤلب الجماهير ضد أبي عمار. وقد نجحت في ذلك إلى حد، فقلت شعبيته في العاصمة اللبنانية وازدادت ضموراً مع كل ساعة جديدة، بل مع كل لحظة.

هذه المرة يبدو أبو عمار مستفيداً في رام الله من تجربته اللبنانية، فهو باق حيثما هو في مكان ثابت لا يغيره وبيوت رام الله وأهلها لا تشعر أنها تضرب لأن أبا عمار يسكن فيها أو سيسكن كما كان الأمر في بيروت.

تجربة أبي عمار تقول ان شخصيته في رام الله، ان لم يكن بالخيار فبالاضطرار، ستخف إذا هو تنقل، ولعل في كل بيت جديد ينتقل اليه سيخسر حياً، لذلك اختار الثبات حيث هو وانتظر رد الفعل، فاذا شعبيته المحلية البحتة والفلسطينية والعربية والأوروبية تزداد بازدياد الضوء على بيت فريد واحد وحيد لا يتركه أبوعمار. وكأن من طبيعة الرمز ان يكون ثابتاً، ان لا يتحرك، لا عن مبادئه فقط، بل عن مكانه أيضاً.

لقد اعطت بيروت عرفات ما هو أهم من العاطفة، أعطته التجربة والخبرة في فن بناء الشعبية والتفاف الناس حوله في المدينة التي هو فيها باعطائها الشعور انه حريص عليها، فاذا رام الله تحبه حبين، حباً لانه فخرها كما هو فخر لكل فلسطيني، وحباً لانه يرفض ان يعرّض غير بيته للخطر، فالخطر له والأمن للمدينة.

كل يوم يتبلغ عرفات اخباراً جديدة عن ان شعبيته داخل فلسطين تتوسع أكثر فأكثر، بعكس ما كان الوضع في بيروت، وكل يوم يزداد شعوراً بأن قوته تتعاظم بقدر ما يتعاظم ثباته في المكان وفي الموقف معاً.

كل يوم تتوافد عليه الأخبار باتساع الدائرة السياسية حوله كرجل السلام العربي بينما تضيق الدائرة حول شارون رجل السلام الإسرائيلي.

وإذا التلفزيونات والصحف والاذاعات الغربية وغير الغربية تقول: ها ان أبا عمار موجود كممثل للفلسطينيين، فهاتوا غير شارون ممثلا للإسرائيليين.

انها نغمة بدأت وهي إلى تصاعد.. فنتنياهو وارد من جنس المتطرفين، وبيريز وارد من جنس المعتدلين والبورصة تطرح في ما تطرح عسكريين وغير عسكريين يمكن ان يكونوا أفضل للمرحلة من كل من جربهم الإسرائيليون حتى اليوم.

أوضح ما في الصورة الفلسطينية الإسرائيلية هذا الثبات في اسم عرفات كمرشح وحيد عن الجانب الفلسطيني لقطار السلام، اما المرشح عن الجانب الآخر فهو، ان كان حتى اليوم شارون، فليس مضموناً ان يكون هو الرجل الإسرائيلي المستمرحتى تدق ساعة الحسم، فيقال له: تعال أنت وعرفات فاتفقا واعطيا لصاحب القرار الدولي الحل المطلوب.

كان الحرص على مصلحة اسرائيل حقيقة دائمة في السياسة الامريكية، ولكن أمريكا مابعد الحادي عشر من ايلول ـ سبتمبر لا تحرص على مصلحة اسرائيل فقط، بل تحرص على ان يأتي سلام بسرعة، فهي لا تريد ان يتأخر هذا السلام، بل تريده عاجلاً كي يُقال ان بوش قد انجز شيئاً هاماً للسياسة الأمريكية، وكي تشعر المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة أنها قدرت على تذليل عقبة مستعصية في المجال الدولي، وهذه العقبة المستعصية هي مشروع السلام الهارب في الشرق الأوسط.

من السذاجة الظن ان نصراً تحصل عليه الولايات المتحدة في افغانستان يحل محل النجاح في عقد سلام في فلسطين جعلته الولايات المتحدة منذ زمن بعيد المقياس لنجاحها ونجاح كل اصدقائها في العالم، فأي افغانستان هذه هي التي ستستطيع ان تُشبع مراهنات السياسة الدولية المحبطة منذ زمن بعيد حول السلام في الشرق الأوسط.

لقد أقنعت الولايات المتحدة نفسها والعالم أن أهم حدث ممكن ان يحدث في مطلع القرن الجديد هو صلح فلسطيني ـ اسرائيلي، فالرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون جعل انجاز السلام هدفه الاول، وكان آخر ما قام به من رحلات خارج الولايات المتحدة وهو رئيس رحلة إلى فلسطين هو وزوجته السناتورة الحالية هيلاري كلينتون.. ووقفا معاً تحت العلم الفلسطيني في اشارة تاريخية إلى انه ما دام هذا السلام لم يقم، فإن العالم ناقص القدرة على حل مشاكله.

وأياً كان تعلق بوش شخصياً بهذا الهدف، فإن الولايات المتحدة متمسكة به، وكأن البروتستانتية العميقة في الضمير الامريكي والتي نشأت على تقديس كلمة السلام كرسالة للسيد المسيح على الارض، أصبحت بلا وعيها مشدودة في السياسة إلى سلام يقع في ارض السيد المسيح ويكون فاتحة لمرحلة جديدة في حياة بني البشر أياً كانوا.

ولعل جورج بوش مغلوب باضطراره إلى الحصول على سلام سريع بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

بالتأكيد انه يشعر بنفسه مرتاحاً أكثر في افغانستان التي يجلب له النصر فيها كسباً لشركات النفط وغيرها، بينما الأمر ليس كذلك بالنسبة للموضوع الإسرائيلي الفلسطيني الذي قد يكون فيه شيء من الاضرار بهذه الشركات صاحبة العلاقات التاريخية مع الدول والزعامات العربية.

غير ان هذا الموقف الضمني لبوش والحزب الجمهوري لم يبق له مجال بعد هجمات 11ايلول ـ سبتمبر.. إذ أصبح محتوماً على أمريكا ان تطلب نجاحاً كبيراً في السياسة الدولية لا يمكن ان يجسده الا سلام في الشرق الأوسط.

من هنا ضعف هذا القوي الذي اسمه شارون حيث تتعدد الدلائل على انه أقدر على الانتصارات العسكرية مما هو على الانجازات الدبلوماسية والسياسية.

ومن هنا قوة هذا الضعيف الذي اسمه عرفات، فهناك عرفات واحد بينما هناك عشرات من الشارونات داخل اسرائيل وهم ينتظرون دورهم ليكونوا هم صانعي السلام لشعب اسرائيل.

ان الجو الدولي الترحيبي بالقمة العربية في بيروت وخاصة بعنوانها الكبير الذي هو مبادرة ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز القائلة بالسلام مقابل التطبيع، اعطى عرفات مقعداً طبيعياً في قطار السلام، بينما يظهر في الدوائر الدولية عامة تلكؤ عن تكريس شارون كرجل اسرائيل الأفضل والوحيد للسلام.

فإذا اضفنا المراهنة على براعة ياسر عرفات السياسية ووحدانية موقعه كممثل للشعب الفلسطيني، يمكننا التكهن بأنه إذا لم يستطع شارون ان يحقق نصراً ميدانياً سريعاً على الساحة الفلسطينية، فإن مزاحميه الإسرائيليين سيكثرون ليقولوا له: اعترفنا لك بالدور في الحرب، فما عليك إلا ان تعترف لنا بالافضلية في السلام. وواضح انه في مقابل المؤيدين الكثر لشارون في زمن الحرب، هناك المشككون الكثر أيضاً بقدرته على ان يكون الصالح لان يسبق عرفات في حلبة السلام.